

المقومات الروحية لتحرير بيت المقدس عند صلاح الدين الايوبي

م.م. احمد خزعل ثامر
جامعة تكريت / كلية التربية / قسم التاريخ

المقدمة

تناول العديد من الكتاب والمؤلفين والمفكرين المعاصرين القدس من واقعها المادي دون التركيز على ما تمتلكه من قوة جذب روحية اعطتها مكانة وقدسية في النفوس كانت سبباً مهماً واساسياً في محاولات تحريرها او الحفاظ عليها.

وكانت الأشارات القرأنية والنبوية تؤكد على ذلك المعنى الروحي، اذ جاءت اول اشارة لعلو منزله المسجد الأقصى في القرأن الكريم في سورة الأسراء : ((سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله))(١). تؤكد هذه الأيه الكريمة على حرمة المسجد الحرام مهبط الوحي وما حوله وقدسية المسجد الأقصى المبارك حيث معراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد تم ذلك على ارجح الأقوال قبل الهجرة بسنه واحدة (٢) وجاءت الأحاديث النبوية الشريفة حول اهمية ومكانة المسجد الأقصى .

فقد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم أنه بشر بفتح بلاد الشام وبيت المقدس، فعن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((يا معاذ انه ستفتح عليكم الشام من بعدي من العريش الى الفرات رجالهم ونسائهم ، وهم مرابطون الى يوم القيامة ، فمن اختار منكم ساحل من سواحل الشام او بيت المقدس ، فهو في جهاد الى يوم القيامة))(٣) . فضلاً عن ان القدس القبله الأولى للأسلام واستمرت على ما يزيد عن سنة ونصف وهذه القدسيه تبين أن تحريره لن يكون على ايدي عصاة ومذنبين ولا لمن تنكر للنهج الذي جاء به الرسول الكريم ، فتحرير الأقصى شرف لن يناله الا من استحقه ومنزلة كريمة لن يتبوئها الا من احب الله واحبهُ الله (٤) . وقد اسس ذلك توجهاً روحياً تجاه بيت المقدس ليس فقط لتحريره بل كون قدسيته تعد جزءاً من الأهتمامات الدينية التي لا يمكن التخلي عنها او المساومة عليها حتى اصبح بيت المقدس يقارن بالحرم المكي والمسجد النبوي ويظهر ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ((لاتشد الرحال إلا لثلاث مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)) (٥) .

أظهرت الاحداث التاريخيه التي مر بها بيت المقدس عناصر قوته الروحانيه والتي كانت سببا في التنافس الديني والدنيوي حوله فضلا عن انها اداة حيويه ومهمه جاذبه للمشاعر الدينيه والتي أستطاع صلاح الدين توظيفها بطريقه عجز غيره عن تنفيذها ، وربما يعود ذلك للتطابق الكامل بين مشاعره الدينيه الصادقه وبين البرامج التي أراد تنفيذها .

قسم البحث الى مقدمه ونبذه عن شخصيه صلاح الدين وتدرجه في الوصول الى السلطه ، ومن ثم التطرق عن المقومات الروحيه التي أعتمدها صلاح الدين في تحققيق النصر ، واخيرا قدرة صلاح الدين من الاخذ بالاسباب الماديه والكيفيه التي منحها الدعم الروحي وجعلها مؤثره في المجتمع العربي الاسلامي عامته وخاصته وبالتحديد المقاتلين اذ جعلهم يرون النصر ويلمسونه قبل الدخول في المعارك . وكان للمصادر الاوليه أهميه خاصه بالبحث ومنها كتاب النوادر السلطانيه لابن شداد حيث يذكر الكثير من النصوص التي تبين أهتمام صلاح الدين بالقران الكريم والحديث النبوي الشريف والتي تدلل على أهتمامه الواسع بالعقيده الاسلاميه وأمور الدين ، كذلك كتاب الروضتتين في أخبار الدولتتين لابي شامه المقدسي الذي يؤكد في نصوصه على حب صلاح الدين للجهاد والعمل به بأعتباره ركنا مهما من أركان الدين فهو الدافع الحقيقي للنصر، كما يذكر المقدسي في كتابه عيون الروضتين في أخبار الدولتتين بأن السلطان كان مهتما بالمشايخ الذين كانوا يروون الحديث ويقرؤن القران بصوت حسن فقد كان كثير السماع لهم فضلا عن أنه كان يقربهم ويجلهم ويزيدهم في الاعطيات. وقد انتهى البحث بأستنتاجات عديده الا أنها لا تخرج عن أن صلاح الدين الايوبي أستطاع ان يقدم وعياً وفهماً للجهاد جعله ثقافه شاعت بين جميع مكونات المجتمع العربي الاسلامي.

صلاح الدين والسلطنه:

من المعروف ان صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شادي قد برز للمرة الأولى اثناء اشتراكة في الحملات التي قادها عمه اسد الدين شيركوة على مصر وهي حملات ثلاث وقعت بين السنوات (٥٥٩ – ٥٦٤هـ /١١٦٤_ ١١٦٩ م) بدأت بتلبية نور الدين لنجدة الوزير الفاطمي المخلوع شاور السعدي وانتهت بمقتل هذا الوزير وتعيين شيركوه خلفاً له [٦] . وقد ظهرت على الساحة العسكرية والسياسية الكثير من التحولات السياسيه التي دفعت بشكل متسارع الى ظهور الدولة الأيوبية لتحل محل الدولة الفاطمية في مصر ومحل الدولة الزنكية في الشام واطراف العراق ، حيث استمدت نظمها العسكرية و السياسية من هذين المنبعين ، الا ان المنبع الزنكي كان اكثر تأثيرا، فقد نشأ صلاح الدين واخوته وابناء عمومته في كنف نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي [٧] الذي كان همه مطاردة الصليبين وطردهم من البلاد واعادة القدس الى المسلمين فقد كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت من ان يضيع هباء والدم المسلم ان يهدر والكرامة الأسلامية من ان تهان والأرض الأسلامية من ان تغزى وتقطع [٨] .

فقد تربى صلاح الدين على هذه الروح الجهادية واراد ان يحقق نية نور الدين الصالحة في طرد الصليبين من بيت المقدس واعادة الأرض الى اصحابها الحقيقيين، فقد ايقن بأن هذا الأمر يحتاج الى وحدة المسلمين[٩] .

وما لبث ان توفي كل من نور الدين محمود صاحب الشام ، واملريك صاحب بيت المقدس عام (٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) وكادت الدولة التي شيدها عماد الدين والد نور الدين في الموصل وحلب

ان تتعرض للتصدع [١٠] لأن نور الدين لم يخلف سوى ولدا واحدا لم يتجاوز عمره الحاديه عشر ، مما فسح المجال أمام قائد من طراز صلاح الدين حال دون ذلك بل ان هذا دفع عجلة الوحدة الأسلامية خطوة عظيمة الى الأمام ليخلص بيت المقدس من الغزاة المتبربرين[١١] .

ويبدو ان انشقاقاً مثيلاً حدث بين الصليبيين في فلسطين حول خلافة املريك الذي خلف على العرش ابنه (بلدوين الرابع)[١٢] الذي لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره فأستغل هذا الوضع وبدأ يستولي على المدن الشامية التي كانت بيد امراء نور الدين محمود الواحدة بعد الأخرى فأستولى صلاح الدين على حمص وحماة ثم بعلبك وكافة المدن الشامية ، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد[١٣] .

فكان اول مافكر به صلاح الدين هو الأنتصار للملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ووضعه تحت كنفه ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها الى مملكته في مصر فكتب اليه والى الأمراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه كتاباً اعلن فيه انقاذ البلاد من التفرقه ودفع خطر الفرنجه بقوله: " تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرُادها وتعدم الأراء رشادها ... فكونو يداً واحدةً واعضاداً متساعدة"[١٤] .

وجد صلاح الدين في الجهاد واقعا للعمل على توحيد الجبهة الأسلامية بعد وفاة نور الدين محمود في وقت كانت فيه الوحدة عالقة في ذهنه فهي فكرة سعى اليها من قبل الزنكيون الذين حاولوا توحيد بلاد الشام وايقن صلاح الدين ضرورة بناء جبهه اسلاميه تضم بلاد الشام الى مصر اذ ازدادت مطامع الصليبيين ، وهكذا خاض مرحلة انتقالية تشهد الهدف حتى اخضع حلب سنة (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م) ثم الموصل (٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م) فقد ظهر بمظهر اكبر حاكم إسلامي ونشر نفوذه في الشام والجزيرة [١٥] عندما رأى بوضوح ضعف العالم الإسلامي الذي عده السبب في قيام الدويلات الصليبية فضلا عن الأستمرار في بقائها فعزم على اعادة الكيان السياسي الأسلامي ليس تحت حكمه هو وانما الى كنف الشريعة تحت اشراف الخلافة العباسية [١٦] .

الألقاب ودلالاتها الأيمانية :

يعد العامل الديني من اهم مكونات الشخصيه في المجتمعات الاسلاميه فضلا عن كونه المؤثر في السلوك الفردي والجماعي السياسي والاجتماعي وهذا الامر كان يشكل دافعا حيويا في سبب أختيار القادة الزنكيين والأيوبيين لأنفسهم القاباً تدل على النزعة الدينية مثل عماد الدين ونور الدين وسيف الدين واسد الدين وصلاح الدين ... الخ . وهذا لا يعني انهم كانوا يتخذون الالقاب فقط للتظاهر بالدين بل كان الرعيل من القادة الذين تعلقوا بالدين جعلهم يختارون القابهم بعناية تتلائم مع روح الجهاد وظرف المرحلة التي عاشوها ، فقد زار ابن جبير خلال رحلته الشهيرة العراق والجزيرة وبلاد الشام عام (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) وقد استوقفه مارأى فيها من كثرة الألقاب فيصف صلاح

الدين صاحب الشام ومصر والحجاز واليمن ((المشتهر بالفضل والعدل))[16] فيقول : " هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، وما سوى ذلك في سواه فزعاج ريح وشهادات يردها التجريح ودعـوى نسبه للدين برحت به أي تبريح " [18] . ان هذا الوصف الذي اتصف فيه لهو صدق دليل على علـى ماتخذه من القاب كان واضحاً في تصرفه انذاك لكل من شهد عصره واوانه .

المقومات الروحية التي اعتمدها صلاح الدين :

١- القرآن الكريم

إن التمرس العسكري ليس هو كل ماتلقاه صلاح الدين اثناء نشأته ، بل درس العلوم الدينيـة حتى انتظمت عقيدته الدينية انتظاماً واضح الرؤية [19] . فالأعداد المعنوي والفكري هو اساس العقيدة الأسلامية المجاهدة فضلا عن أنها متلازمة مع الأعداد المادي جنباً الى جنب ، وهذا البناء العقائـدي جعل هذا البطل يحرر بيت المقدس فيقول ابن شداد [20] " كان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعـالى " . فقد تربى على الفروسية والنزال والحرب والجهاد وكان حافظاً للقرأن الكريم تقياً بعيداً عن المعاصي يخشى الله سبحانه وتعالى وقال فيه ايضاً " كان رحمه الله خاشع القلب غزير الدمعة إذا سمع القـرآن خشع قلبه ودمعت عيناه كثير التعضم لشعائر الدين"[21] كما كان يصلي الفروض جميعها في جماعة ، ويحب سماع القرأن الكريم، وكان يستخبر امامه ويشترط ان يكون عالماً بعلوم القرأن متقناً لحفظه ، ويستقرء من يحضره في الليل الجزئين والثلاثة والأربعة ، اذا سمع القرأن خشع قلبه ودمعت عيناه[22] . فالقرأن الكريم هو الدستور وهو الأساس الذي عده صلاح الدين الحافز لأعلاء كلمة الله في الأرض ونشر العدل والمساواة واحقاق الحق بكافة اشكاله وصوره ، فهو حافظاً للقرأن الكريم وداعياً الى اتباع اوامره واجتناب نواهيه ، حاثاً على الأعتصام بحبل الله فكان يضع نصب عينييـه الايـه الكريمـة : ((وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ))[23].

٢- الحديث النبوي الشريف :

لقد روى صلاح الدين الحديث النبوي الشريف عن مشايخ الحديث ، فقد سمع من ابي طـاهر السلفي والفقيه علي ابن بنت ابي سعيد ، وابي طاهر عوف ، والقطب النيسابوري وحدث بما سـمعه منهم [24] . فقد كان شديد الرغبة في سماع الحديث اجلالاً له ، واذا كان الشيخ ممن لايطرق ابـواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى اليه وسمع منه [25] . ومتى سمع عن شيخ رواية عالية وسماع كثير استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان مـن اولاده ومماليكـه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجـلالاً لـه[26] . فقـد قـال العمـاد الأصفهاني عنه : " نزه مجالسه عن الهزل ومحافلة أهله بالفضلاء ، يؤثر سماع الحـديث بالأسـانيد حليماً مقيلاً للعثرة تقياً نقياً وفياً حفياً "[27].

٣ – اهتمامه بالفقهاء والعلماء :

وجد صلاح الدين في الفقهاء والعلماء ضالته المنشوده لما لهم من تأثير في وسط العامه والخاصه على حد سواء لذلك أعطاهم دورا بارزا في لم شمل الامه ورص الصفوف وفي ذلك قال هاملتون جب في مجمل حديثه عن شخصية السلطان صلاح الدين : " لم يكن الفضل الوحيد في انتصاراته عائداً الى الصفات العسكرية ذاتها ، ولكن انتصاراته جائت بفضل امتلاكه ، لصفات معنوية ... ، فقد كان يستمد وحيه من مثال اعلى ذي قوة وثبات ... فقد نجح في حشد ذلك الجيش الذي قدر له ان يقضي على مملكة القدس اللاتينية " [٢٨] . لقد ورد عن صلاح الدين انه خلال المعارك ، كان يصطحب علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة ، فضلاً عن ان وجودهم يعتبر حافزاً قوياً للمريدين على القتال ببسالة وشجاعة نادرة [٢٩] فوجودهم بين صفوف المتطوعين كان له الأثر في إيداع هذه الطائفة وإحراز انتصاراتهم حيث ذكر ابن الأثير في حوادث سنة (٥٨٣ هـ) وفي معرض حديثه عن معركة حطين عندما أحاط الصليبيون بالمسلمين قام المتطوعة بأشعال النار في تلك المنطقة مستغلين كثرة الحشائش اليابسة وسير اتجاه الريح على العدو فحملت حر النار والدخان اليهم مما سبب لهم الأرباك الكبير في صفوفهم [٣٠] . لقد استطاع صلاح الدين بصدقه واخلاصه ان يفوز بأحترام الفقهاء واعجابهم [٣١] وكان يؤثر مجالستهم عندما يجد الوقت المناسب . فعندما اتم تحرير بيت المقدس سنه (٥٨٣ هـ) في يوم الجمعة المشهور جلس السلطان في المخيم ظاهر القدس بين الفقهاء واهل العلم جلسائه الأبرار ، بينما كان الناس ينظفون الحرم القدسي الشريف من بقايا الشرك و الوثنيه التي كانت به [٣٢] ومن شدة ملازمته للعلماء ورجال الدين فقد كان يصحبونه حتى عندما كان يقوم بالأعمال التي تخص تحصين المدن والقلاع كما حدث سنة (٥٨٨ هـ) عندما امر السلطان بعمارة ابراج القدس وحفر خنادقه ، وقد عمل السلطان فيه بنفسه [٣٣] ، كما اجرى لهم الرواتب والعطاءات السخية ففي رسالة بعثها القاضي الفاضل الى السلطان يخبره بأن ارزاق ارباب العمائم في دولته من اقطاع ورواتب ، يتجاوز مائتي الف دينار وربما كانت ثلاثمائة الف دينار [٣٤] .

مقومات النصر وأسبابه :

١– حبه للجهاد :

أكد الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة على مكانه الجهاد وما له من فضل اذ جعل له أمتيازات خاصه جعلت له خصوصيه عن غيره من الاعمال والنشاطات التي حث الأسلام عليها ونبه على ضرورة القيام بها، كما بين القرأن الكريم ان الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة حصيلتها بالنسبة الى المجاهدين . طي صفحات الخطايا التي يمكن ان تكون قد سجلت عليهم واغلاق ابواب العذاب دونهم ، وفتح ابواب النعيم امامهم وسير بهم الى طريق النصر على عدوهم [٣٥] . يقول الله تعالى: (

يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون)[٣٦].

كما ضمت السنة النبوية ذخيرة غنية من الأحاديث التي تبين فضل الجهاد وترفع من قدر المجاهـدين فقد جعل الرسول الكريم الجهاد على رأس جميع الأعمال جميعاً بعد الأيمان بالله عز وجل وذلك فيما يرويه البخاري ومسلم وعن ابي ذر رضي الله عنه قال " سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمـل افضل ؟ قـال : " ايمان بالله وجهاد في سبيله " [٣٧] .

لقد كان صلاح الديـــن يتمتع بإخلاص حقيقي لدعوة الأسلام ومثله العليا [٣٨]. يقول ابن شداد [٣٩] عن صلاح الدين : " كان الرجل اذا اراد التقرب اليه يحثه على الجهاد او يذكر شيئاً من اخبار الجهاد ، وقد الف له كتب عده في الجهاد وانا ممن جمع له فيه كتاباً ... وكان كثيراً ما يطالعه " ، فقد ابدى السلطان اهتماماً كبيراً وحرصاً كبيراً على متابعة الجهاد من اجل تحقيق النصر واعلاء راية الله اكبر وتحرير القدس وحماية الأراضي الإسلامية من اعتداءات الفرنج حيث بذل الأموال الطائله والجهود المتواصله وعمل على تعبئة الجيوش وحرص على مكاتبة اصحابه وأمرائه خاصة فيما يتعلق بأمور الجهاد والدعوة اليه وذلك باستدعاء الأجناد للجهاد قبل كل معركة [٤٠] .

اما الأموال التي بذلها السلطان على الجهاد فقد وضع اموال كل ولاية اسلامية من الجبايـات المستحصلة منها كرصيد جهادي ينفق في الفتح والتحرير فقد ذكر ابو شامه [٤١] عن ذلك بـالنص : " ... فقد انفق المولى صلاح الدين مال مصر في فتح الشام وانفق مال الشام في فتح الجزيره وانفق مال الجميع في فتح الساحل " ، فعندما كان يصل حمل من الأموال الى مقر السلطان فأنه كان يخـصص الالاف منه الى الجهاد وقد كان شغوفاً في الأنفاق في سبيل الله [٤٢] .

لقد كان صلاح الدين قائداً مفكراً وراعياً للعلم والعلماء وساعياً لنشر الأسـلام ومحـرراً للأراضـي المغتصبه حتى وصفه الأعداء والأصدقاء بصورة انسانية خلدت مكانته ودوره التـاريخي [٤٣] ، فقـد نعته الخليفة العباسي المستضيء لأمر الله (بالعالم العادل المجاهد المرابط) [٤٤] . ويقول عنه ابـن جبير : " وله من المأثر المأثوره في الدنيا والدين ومثابرته على جهاد اعداء الله ... فهـو لا يـأدي لراحة ، ولا يخلد الى دعه ، ولا يزال سرجه مجلسه " [٤٥] .

٢- حبه للشهادة :

لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيمـاً بحيـث ماكان له حديث الا فيه ولا نظر الا في الته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ولا ميل الا من يـذكره ويحث عليه ، لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ، ووطنه وسائر بلاده وقنـع مـن الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهابها الرياح ميمنه وميسره [٤٦] .

ان هؤلاء استحقوا فعلاً ان ينصروا لأنهم تحملوا في ذات الله الكثير واستنفذو كـل اسـباب الأرض فجاء نصر الله لهم رغم عدد وعتاد عدوهم ففي سنة (٥٨٧ هـ) عندما استولى الفرنجة على

عكا في السابع من جمادي الأخرة كان السلطان صلاح الدين يمر على قادة جيشه الواحد تلو الأخر ويحث الناس على الجهاد ويصيح بأعلى صوته (ياللأسلام) وعيناه تذرف بالدموع ولم يتناول طعامه في ذالك اليوم(٤٧).

كما يذكر ابن الأثير عن لسان الملك الأفضل ان السلطان عندما كان يبشر بفتح قلعة او حصن او حسم معركة لصالحه كان يخر ساجداً لله شكر وطاعة ويبكي من فرحه (٤٨) . لقد كانت رغبة السلطان ركوب البحر والعبور الى مواطن الفرنجه بعد ان استكمل فتح القدس فقد اخبر القاضي ابن شداد ان هدفه الأن ان يموت اشرف الميتات فلما سأله عن كيفية ذلك اجابه : " انه يرغب ركوب البحر ويغزو مواطن الفرنجه لنشر الأسلام " (٤٩) ولا يبقى على وجة الأرض من يكفر بالله او يموت (٥٠) ، فقد ايقن بأن كل من يموت في سبيل الله في جنة الخلد ان شاء الله فعندما قاد الجيش من الشام في اول محرم سنة (٥٨٣ هـ) متجهاً الى القدس يقول الكاتب : " ومضى بأهل الجنة لجهاد اهل جهنم " (٥١) .

وقد تجلى حبه للموت في سبيل الله في اروع صورة فيقول القاضي الفاضل: "عندما كان يمرض السلطان ولا يقوى على مباشرة الأمر بنفسه في القتال كان يبكي لعدم قدرته على مخالطة القوم ويأمر اولاده بالنزول الى ساحة المعركة ، حدث ذلك في مرج عكا بعد ان كثر الموت في الطائفتين فأنشد يقول : اقتلاني ومالكاً .. واقتلا مالكاً معي ، وكان يقصد انه يرضى بالموت اذا مات اعداء الله وقد كان لهذا القول قوة عظيمة في نفوس العساكر" (٥٢) .

٣- دور المطوعة في حروب صلاح الدين :

إن كلمة مطوع مأخوذ من الطاعة والمطوع هو المطيع لأمر الله بمعنى من أطاع الله تعالى واستسلم له بالتوحيد وهي صفة يشترك فيها كل المسلمين الموحدين والقائمين بأركان الأسلام الخمسة من كلا الجنسين (٥٣) .

لقد كان لكل مدينة من المدن الأسلامية عامة والداخلة في اطار الدولة الأيوبية خاصة فرقة من الغزاة المطوعة ، كانو كثيراً مايقصدون السلطان للجهاد معه بمحض إرادتهم والجدير بالذكر إن مدينة دمشق التي اتخذها صلاح الدين عاصمة لدولته كانت تشتهر بفرقة من الأحداث ، منذ ايام نور الدين وقبله ، يدلنا ذلك ما ذكره ابن القلانسي (٥٤) . وقد حل محلها كلمة (المتطوعين) والتي لم تكن قوة نظامية ، بل كان في استطاعتهم العودة الى اوطانهم أينما كانوا وحيثما شاءوا (٥٥) . ويبدو ان اغلب المتطوعين الذين اسهمو مع صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين لم يكونو مقصورين على طائفة الأحداث الشهيرة في دمشق ، بل ضمت في عهده أعدادا كبيرة من الفقهاء وعلماء الدين ، فقد ذكر ابن كُثير(٥٦) ان السلطان عندما عزم على فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ / ١١٨٧م) " قصده العلماء والصالحون تطوعاً " وكثيراً ما تذكر المصادر التي بين ايدينا ان السلطان عند عزمه على الجهاد كان

يبعث رسله الى الأقطار والأمصار" للأستنفار والأستنصار " [٥٧] والظاهر انه يقصد بالعبارة الأولى استنفار جند الأمراء الذين كانوا يعدون بمثابة الجند الأحتياطي، اما العبارة الثانية فهي حث الناس على الجهاد في سبيل التطوع لا الألتزام [٥٨] .

وقد ذكر العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القسي من رسالة كان قد بعثها صلاح الدين الى اخيه سيف الأسلام باليمن يستحثه فيها على الجهاد قال فيها : "وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات " [٥٩] ، اذ يحتمل ان يكون المقصود بالجموع الغزاة المتطوعة [٦٠] . الا ان من النادر ان ترد اشارة خاصة لهم بالروايات لكن عماد الدين يسجل حضورهم في المعارك عند (مخاضة الأحزان) في العام (٥٧٥ هـ / ١١٧٩م) ويقول : " بعض الغزاة المطوعية في الجهاد "[٦١]، فقد قاموا بأشعال النار في العشب اليابس يوم معركة حطين عندما احاط الصليبين بالمسلمين مستغلين كثرة الحشائش وسير الريح بأتجاه العدو فحملت حر النار والدخان اليهم مما سبب لهم (أي الصليبيين) الإرباك الكبير في صفوفهم [٦٢] .

٤- التبرك بيوم الجمعة :

كان صلاح الدين يختار ايام الجمع لمقاتلة الأعداء بعد صلاة الجمعة الجامعة ، وكان يختار الجنود ممن يصلون ويلتزمون بصلاة الفجر جماعة في المساجد ويقرؤن القرآن الكريم ويعتبرهم من المؤمنين حقاً ولديهم الاستعداد النفسي والروحي للجهاد في سبيل الله وهم اقدر على تحمل المهام الجسام ، وعندما كان يتفقد خيم الجنود يحثهم على قراءة القرآن ويقول لهم من هنا يأتي النصر فعندما يدخل خيمة ولا يجدهم يقرؤن القرأن يقول لهم من هنا تأتي الهزائم [٦٣] ، ففي ١٧ ربيع الأخر سنة (٥٨٣ هـ/١١٨٧م) تحركت جيوش صلاح الدين قاصدةً بلاد العدو: " وفي وسط نهار الجمعة بعد اداء الصلاة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت اقرب الى الأجابة ، قاصدةً تحرير بيت المقدس" [٦٤] . وفي يوم ٢٣ من الشهر المذكور يوم الجمعة هجم صلاح الدين على العدو على سطح جبل طبريه [٦٥] . ان النصر الذي ساقه الله للمسلمين في حطين كان فضلاً وعطيةً من الله تعالى ليس لعمل الناس فيها الا الدخل المحدود بالتجهيز والأستعداد والأخذ بالأسباب ، والأسباب لا تأخذ نتائجها الا بقدرة الله وحمايته ورعايته . لقد تم النصر النهائي على الفرنج يوم الجمعة ٢٧ من رجب في ليلة الأسراء والمعراج وان مثل هذا الأتفاق العجيب الذي يسره الله للمسلمين علامة قبول هذه الطاعة من الله سبحانه وتعالى[٦٦]، كما اتفق : " فتوحات الساحل من جبله الى سرمانية في ايام الجمع وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر الله الفتوح في اليوم الذي تضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في التاريخ " [٦٧] .

الأستنتاجات :

تبين من خلال الدراسة إن أهم أسباب ومقومات النصر في حروب صلاح الدين التـــي أدت إلـــى تحرير بيت المقدس هي :

١- اهتمت الشريعة الأسلامية بالكشف عن الأسباب المؤدية الى تحقيق النصر او احـــلال الهزيمـــة وانقسمت الى مادية ومعنوية ، وقد اشار القرأن الكريم والسنة النبوية الى ذلك في مواطن كثيرة .

٢- اعتمد صلاح الدين الأيوبي على الجوانب الروحية في تحفيز الهمم ورفع المعنويات ليس فقط في لم شمل الأمة بل في تحقيق الأنتصارات .

٣- استطاع صلاح الدين ان يوفر الجهود المادية عن طريق التركيز على الجوانب الروحية بشكل قلل من الضحايا واختصر الزمن وهيئ البديل للنواقص التي كانت الجبهة الأسلامية تفتقدها .

٤- اكد صلاح الدين على تقديم علماء الدين واصحاب التقوى واهل الأيمان في مقدمة جحافلـــه لمـــا يمتلكونه من روح تضحية وصدق تثير في غيرهم الحماس وحب الشهادة .

٥- وجد في القرأن الكريم وكثرة تلاوته والتبرك فيه من اجل خلق اجواء روحانية تلهب في المقاتلين روح الأرتباط بالواحد الأحد .

٦- كان صلاح الدين يرى في السنة النبوية عنصر تبرك فضلاً عن انها وسيلة مهمة في الوصول الى الحقيقة الدنيوية ورضى الله سبحانه .

٧- حاول جاهداً ان يجعل من المناسبات الدينية نقطة انطلاق لحروبه ضد اعداء الدين ، وبهذا يعطي لتلك الرموز التاريخية نوعاً من التقديس لما تركه في نفوس العامة من الهام وتأسي بالمسلمين الأوائل .

٨- اظهرت الحروب والوقائع التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين انـــه يركـــز علـــى الجانـــب المعنوي إلى الجانب العسكري والسياسي في تحقيق النصر أكثر من الجوانب المادية رغم اهتمامه بها ايضاً .

٩- جعل المطوعة رأس حربة في جيشه لما يمتلكون من ايمان وقدسية وحب للجهاد.

الهوامش

١. القرآن الكريم ، سوره الاسراء ، آيه (١).

٢. البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) ، انساب الاشراف ، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي ، الطبعه الاولى ، دار الفكر ، (بيروت ١٩٩٦) ج١، ص٢٥٥.

٣. مجله المؤرخ العربي اتحاد المؤرخين ، (بغداد ١٩٨٦) ، العدد ٣٠ ، فتح القدس واهميته من المنظور الاسلامي.

٤. الجبوري ، نهاد عباس ، تاريخ القدس العسكري في عصر الرساله والخلافه الراشده ، (بغداد ١٩٩٧) ، ص١٨.

٥. البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ه) ، صحيح البخاري ، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي ، الطبعه الاولى ، دار القلم ، (بيروت ١٩٨٧)، حديث رقم ٩٧٩ ، ج٣ ، ص٤٠٦.

٦. الملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق ، مؤتمر القدس السنوي الرابع ، (تكريت ٢٠٠٢) ، صنع القرار في حكم صلاح الدين ، ص٧٢١.

٧. نفسه ، في روايه يذكرها صاحب التاريخ الباهر في الدوله الاتابكيه عندما قام السلطان بأنصاف احد الرعيه من ظلم وقع عليه ، بكى الاول فأجابه السلطان وهذا هو الحق فكل ما يرى فينا من عدل تعلمناه من نور الدين . ينظر: أبن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ه) ، التاريخ الباهر في الدوله الاتابكيه بالموصل ، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الكتب العلميه الحديثه (القاهره ، ١٩٦٣) ، ص١٦٧.

٨. سعداوي ، نضيرحسان ، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي، (القاهره ١٩٥٧) ، ص١.

٩. طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ الايوبيين في مصر وبلاد الشام واقليم الجزيره ، الطبعه الثانيه ، دار النفائس ، (بيروت ٢٠٠٨) ، ص٤٠٧.

١٠. الحنبلي ، أحمد بن أبراهيم (ت ٨٧٦ه) ، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ، تحقيق ناظم رشيد ، دار الحريه للطباعه ، (بغداد ١٩٧٨) ، ص٨٣.

١١. فاروق عمر، محسن محمد حسين ، تاريخ فلسطين في العصور الاسلاميه الوسطى ، دار الحكمه (بغداد١٩٨٧) ص ٢٣٨، ص٢٣٩.

١٢. الذي عرف بالتاريخ بلدوين المجذوم لانه أصيب بمرض الجذام في صغره ، قلعجي ، قدري ، صلاح الدين الايوبي ، قصه الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد الطبعه الخامسه ، دار الكتاب العربي، ١٩٧٩ ، ص٢٢٥.

١٣. قلعجي ، صلاح الدين ، ص٢٢٨.

١٤. أبن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ه) مفرج الكروب في مناقب بني أيوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار القلم ، (القاهره ١٩٥٣) ، ج ٢، ص٧.

١٥. المجله العربيه للثقافه ، محمد أحمد محمد أحمد ، الدوله عند صلاح الدين ، عدد٢٦ ، المنظمه العربيه للتربيه والثقافه والعلوم ، (تونس ١٩٩٤) ، ص٩٧.

١٦.أ.ر. جب هاملتون ، صلاح الدين الايوبي ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، تحرير يوسف أيبش ، المؤسسه العلميه للدراسات والنشر، ص١٩٢.

١٧. ابن جبير، أبي الحسين محمد بن أحمد الكناني الاندلسي (ت ٦١٤ ه) ، رحله ابن جبير ضبط محمد زينهم محمد عرب ، دار المعارف ، (القاهره ٢٠٠٠) ، ص٢١٦.

١٨. ابن جبير، الرحله ، ص٢١٦.

١٩. ابن شداد ، بهاء الدين بن شداد (ت ٦٣٢ه) ، النواد السلطانيه والمحاسن اليوسفيه ، تحقيق محمود درويش ، (دمشق١٩٧٩) ، ص١٩.

٢٠. ابن شداد ، النوادر ، ص١٩.

٢١. ابن شداد ، النوادر ، ص٢٠ ، ابن كثير ، اسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤ه) ، البدايه والنهايه ، مطبعه المعارف ، (بيروت د:ت) ج ١٢، ص٧٠٦.

٢٢. المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥ ه) ، عيون الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق احمد البيسومي ، منشورات دار وزارة الثقافه ، (دمشق ١٩٩٢) ، ج ٢، ص٣٠٠- ص٣٠٣.

٢٣. القران الكريم ، سوره ال عمران ، آيه ١٠٣-١٠٤.
٢٤. ابن شداد ، النوادر، ص٩؛ سير اعلام النبلاء ، ج٣ ، ص٤٢٦٠.
٢٥. المقدسي ، عيون الروضتين ، ص٣٠٤.
٢٦. السيوطي، طبقات الحفاظ.
٢٧.الاصفهاني ، عماد الدين الاصفهاني الكاتب (ت ٥٩٧ه) ، البرق الشامي ، تحقيق مصطفى الحياري ، الطبعه الاولى ، مؤسسه عبد الحميد شومان ، (الاردن ١٩٨٧) ، ج٣ ، ص٨٣.
٢٨. جب ، صلاح الدين ، ص ١٥٠-١٥١.
٢٩. نوري ، دريد عبد القادر، سياسه صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيره ، مطبعه الارشاد ، بغداد ١٩٧٦، ص٣٣٨ وتواليها.
٣٠. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلميه ، (بيروت ١٩٨٥) ، ج١١، ص٥٣٥ ؛ المقدسي عيون الروضتيين ص١٣٥.
٣١. جب ، صلاح الدين ، ص١٩٦ .
٣٢. المقدسي ، عيون الروضتين ، ص١٥٦.
٣٣.المقدسي ، عيون الروضتين ، ص٢٦٥.
٣٤.المقدسي ، عيون الروضتين ، ص٣٢١.
٣٥. هيكل ، محمد خير، الجهاد والقتال في السياسه الشرعيه ، الجهاد في صدر الاسلام والفقه الاسلامي ، الطبعه الاولى ، دار البيارق (بيروت ١٩٩٣) ، ج٢ ، ص٨٣٥-٨٣٦.
٣٦. سوره الصف الايه ١٠- ١٣.
٣٧.البخاري ، ابي عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ه)، صحيح البخاري، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، الطبعه الاولى، دار القلم (بيروت ١٩٨٧) حديث رقم ٩٧٩، ج٣، ص٤٠٦؛ مسلم بن حجاج القشيري (ت ٢٦١ه)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث العربي، (بيروت د:ت) ، ج١، ص٩٠.
٣٨. جب ، صلاح الدين ، ص١٢٦.
٣٩.ابن شداد، النوادر، ص٢٣؛ المقدسي، عيون الروضتين، ص٣١٠.
٤٠. المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ه)، السلوك لمعرفه دول الملوك، تصحيح محمد مصطفى زياده، مطبعه دار الكتب المصريه ج٣، ص٩٢٠٩.
٤١. ابو شامه، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت ٦٦٥ه)، الروضتين في اخبار الدولتين النوريه والصلاحيه، مطبعه لجنه التاليف والترجمه والنشر، (القاهره ١٩٦٥) ، ج١، ص٢٤، ويذكر العماد الاصفهاني في الفتح القسي في الفتح القدسي ص٤٥٦ : ان ما خلفه صلاح الدين في خزائنه، بعد موته كان دينار واحد وسته وثلاثين درهما.
٤٢. المقدسي، عيون الروضتين، ص٢٩٦.
٤٣. مجله دراسات تاريخيه، العدد الثالث ،(بغداد٢٠٠١)، محمد بشير حسن العامري ولع صلاح الدين بالمؤلفات التاريخيه والعسكريه، ص٦٦.
٤٤.الحنبلي، احمد بن ابراهيم ،(ت ٨٧٦ه)، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تحقيق ناظم رشيد، وزاره الثقافه والاعلام، (بغداد ١٩٧٨)، ص١٨٨.
٤٥. ابن جبير، الرحله، ص٢٥٨ .

٤٦.ابن شداد، النوادر ص٣٧؛ المقدسي، عيون الروضتين، ص٣١٠.
٤٧. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ه)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، دار الطباعه الحديثه (بصره ١٩٦٩)، ص١٣.
٤٨. ابن الاثير، الكامل ، ج٩، ص١٧٨. (هو الملك الأفضل على بن السلطان صلاح الدين يوسف، ولد بمصر سنة ٥٦٥، وملك الشام في حياة أبيه ثم من بعده توفي سنة ٦٢٢هـ).
٤٩. ابن شداد، النوادر، ص٢٥، ص٢٦.
٥٠. المقدسي، عيون الروضتين، ص٣١١.
٥١. المقدسي، عيون الروضتين، ص١٣٣.
٥٢. المقدسي ، عيون الروضتين، ص٢٤١.
٥٣. ابن منظور، لسان العرب، تقديم عبدالله العلايلي، تصنيف يوسف خياط، (بيروت ، د:ت) ص٦٢٥.
٥٤. ابن القلانسي، ابو يعلي حمزه (ت ٥٥٥ه)، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق امدروز، مطبعه الاباء اليسوعيين، (بيروت ١٩٠٨)، ص ٣١٥ .
٥٥. سعداوي، نظير حسان، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي، مطبعه لجنه البيان العربي، (القاهره ١٩٥٧)، ص١٥.
٥٦. ابن كثير، البدايه والنهايه، ج١٢، ص٣٢٢.
٥٧. العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص٣٣١، ابو شامه، الروضتين، ج٢ ، ص ١٤٩ .
٥٨. الغامدي، عبد الله سعيد محمد، صلاح الدين والصليبيون (استرداد بيت المقدس)، دار الندوه، (بيروت ١٩٨٥)، ص١١٨.
٥٩. العماد الاصفهاني، الفتح القسي، ص١٩١.
٦٠. الغامدي، صلاح الدين، ص ١١٩.
٦١. ابو شامه، الروضتيين، ج٢، ص١١؛ العماد الاصفهاني، البرق الشامي، ج٣، ص١٤٣؛ جب، صلاح الدين، ص١٧٥.(مخاضه الأحزان)وهو حصن منيع كان الفرنج قد بنوه بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس وأقام بها ثم حاصر الحصن وخربه .
٦٢. ابن الاثير، الكامل، ج١١، ص ٥٣٥ .
٦٣. ابن شداد، النوادر، ص٩٧.
٦٤.ابن شداد، النوادر، ص٩٧.
٦٥. ابن شداد، النوادر، ص٩٩.
٦٦. ابن شداد، النوادر، ص١٠٩.
٦٧. ابن شداد، النوادر، ص١٢٦؛المقدسي، عيون الروضتين، ص١٩١.